

الحرية، وشارع الرشيد، ثم عائدا عبر شارع عمر المختار إلى ميدان الشهداء مرة ثانية، أمرق من شارع إلى شارع، وأقف أمام المقاهي أتصفح وجوه الجالسين فلا أجد أحدا أعرفه. كيف حدث هذا؟ ولماذا؟ وما هو السر الذي أفرغ المدينة من كل سكانها الذين أعرفهم. تذكرت أنني شخصيا لم أقم بمثل هذه الجولة في مركز المدينة، منذ أكثر من عامين، ومع أنني أسكن حيا محاذيا لهذا المركز هو حي المنشية، إلا أنني لا أكاد أجد وقتا لمثل هذا التسكع الجميل، الذي كان عادة يومية في أول مراحل الشباب. مكتبي بمركز البحوث التاريخية، الذي كان يأكل ساعات الصباح، صار الآن يستولى على كل ساعات المساء، بعد أن صرت رئيسا لقسم الوثائق بهذا المركز. وما تبقى من فراغ، فهو محل صراع لا ينتهي بين الواجبات العائلية والمنزلية، وبين مهمات علمية خارج المركز، فلماذا استغرب، إذا كان أصدقائي هم أيضا، مشغولون مثلي بمسئولياتهم العملية والعائلية، التي تمنعهم من ترف التسكع في الشوارع والجلوس في المقاهي. ثم لماذا أنسى، أن مدينة طرابلس، لم تعد تلك المدينة التي لاتضم سوى أهلها، كما عرفت أيام الطفولة والصبا. لقد كبرت، وتضخمت وارتدت أقنعة المدن الكبيرة التي لاتظهر عواطفها للناس. خاطبت نفسي بمثل هذا الكلام، باحشا عن اعدار لمدينتي التي تعاملني هذا المساء معاملة الغرباء.

تذكرت أنني أعرف صديقا قديما يملك دكانا في سوق المشغولات اليدوية، فذهبت مسرعا إلى هناك أبحث عنه، فلاشك أن وجوده سوف يخفف قليلا من وطأة هذا القلق الذي أشعر به. كان سوقا صغيرا، مسقوفا، به حلقة من دكاكين أصحاب الحرف اليدوية، وتجار الهدايا التذكارية كان بعضهم قد أخرج طاولة أمام دكانه ووقف يستخدم مطرقة وينقش أشكالا تقليدية فوق صحنون الفضة والنحاس التي يبيعها للسواح. لم أستطع أن أهتدي إلى دكان صاحبي، وتفحصت وجوه أصحاب الدكاكين فلم أعثر عليه بينهم، لكن